القط بلبل والجد

تأليف: سمر إبراهيم
رسم: رالف ضومط

جَلسَ القِطُّ بلبل، كعادتِهِ كلَّ يوم، على الكَنبةِ بالصّالةِ المُؤدِّيةِ إلى بابِ الشِّقةِ الخارجِيِّ، مُمدِّداً رجليه للخلْفِ، ويَدَيْهِ للأمام، ومُسْنداً رَأسَهُ على يَدَيْهِ مُغْمِضاً عَيْنيهِ نِصفَ إغْمَاضةٍ، يَنْتظرُ عَوْدةَ صَديقتِهِ الصَّغيرةِ «هدى» من زِيارةٍ لإحْدى صَديقاتِها. سَمِعَ «بلبل» صَوْتاً عالياً إلى حدٍّ ما يَصْدُرُ عن الحُجرةِ المُجاورةِ، فاعْتدلَ وحرَّكَ أُذنَيهِ في اتِّجاه الصَّوتِ مُستَمِعاً:

«أنت مِثلُ القِطِّ «بلبل» كَسولٌ لا فائدةَ لك. نَرْعاكَ ولا تَفْعلُ أنت شَيئاً، متى تَعودُ أُمُّكُما وأعودُ إلى بَيْتي؟»

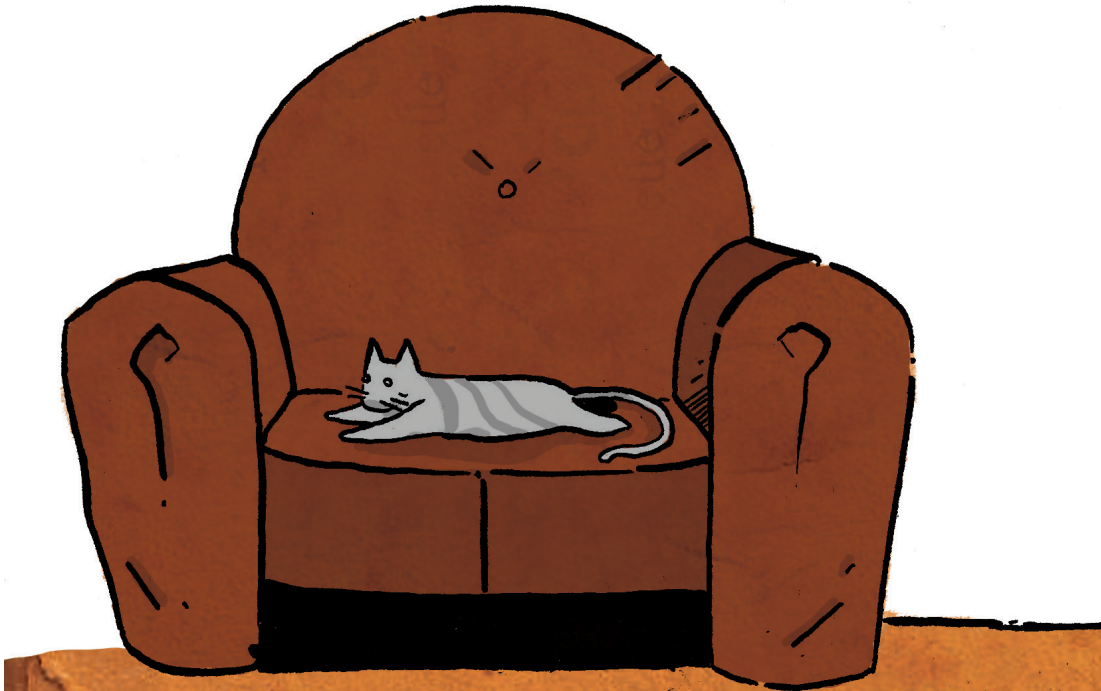

تَعرَّفَ «بلبل» على الصَّوْتِ، كان صَوْتُ الجدِّ يُؤنِّبُ حَفيدَهُ الأصغَرَ، فهو يَصْغُرُ أُخْتَه هدى بعامٍ واحدٍ، ولكنَّه كان وَلداً شقيًّا لا يكفُّ عن اللَّعبِ، ويَأبى فِعْلَ أيِّ شَيْءٍ يُطلَبُ منه، كان الجدُّ قد طَلبَ منه أن يُسْقي نَباتاتِ شُرْفَةِ حُجْرتِهِ لكنَّهُ لم يَفعلْ، بَل اسْتمرَّ في لَعِبِهِ غيرَ عابِئٍ.

ولم يَسمعْ «بلبل» ردَّ الفَتى، فقالَ في نَفْسِهِ: «لابدَّ أنَّه اصْطنعَ النَّدمَ الآنَ أمامَ جدِّه الطَّيبِ، ونظرَ إلى الأرْضِ مُدَّعياً الخَجلَ من فَعْلتِهِ، فعمر لا يفعلُ إلّا ما يُريدُ، آه يا جدّي لو اسْتطعتُ أن أُكلِّمَكَ وأُعرِّفكَ أنَّني لستُ كَسولاً كَما تظُنُّ».

وبَعدَ لَحظاتٍ سَمِعَ «بلبل» صوتَ خَطواتٍ صاعدةٍ على السُّلَّمِ، فأرْهَفَ السَّمعَ، فاتحاً عَيْنيهِ، ومُتوثِّباً، وأدْرَكَ أنَّها صَديقتُهُ هُدى، فَقَفزَ بسُرعةٍ واتَّجهَ نَحوَ البابِ الخارجيِّ للشِّقةِ ورُنَّ الجرسُ، وكانَ «بلبل» أمامَ البابِ يهزُّ ذيلَهُ ويموءُ بنبرةٍ خاصَّةٍ، وكأنَّه يُنادي على أحدٍ كيْ يَفْتحَ البابَ لصَديقتِهِ. وقدِمَ عمر وهو يَضْحكُ، وقالَ لـ «بلبل»: «صَديقتُكَ جاءتْ».

وعنْدَ عُبورِ هدى بقَدمِهَا اليُمْنى إلى الدّاخلِ تَمسَّحَ بها «بلبل». وبعدَ دُخولِها الشِّقةِ وغَلْقِهَا للبابِ الخارجي خَلْفَهَا، نَظرَ إليها «بلبل» في عَيْنيهَا ثم ماءَ، ودارَ حوْلَها وقَفزَ فَوْقَ كَتِفَيْها وتَمَدَّدَ.

وظلَّ يُقْبضُ يَدْيهِ ويُبْسطُهما بحذرٍ حتى لا يُصيبَها بجُرحٍ، مُعبِّراً بذلك عن شَوْقِهِ لها وفَرحتِهِ بعَوْدتِها. جَلسَتْ هدى على الكَنبةِ القَريبةِ من البابِ الخارجيِّ للشِّقةِ التي كانَ يَجْلسُ عليها «بلبل»، وأنْزلَتْهُ من فوقِ كَتِفَيْها، وظلَّتْ تُربِّتُ عليه، فتكوَّرَ «بلبل» في حِجرِها، مائلاً برأسِهِ إلى الأمامِ، فحَملتْهُ بينَ يَديْها، وسارَتْ إلى غُرفةِ جدِّها لتُسَلِّمَ عليه. وعِندَ وصولِها إلى بابِ غرفةِ الجدِّ، فَتحَ «بلبل» عينيه مُنْتبهاً، وقَفزَ مُبْتعداً، وظلَّ يَنظرُ إلى الجدِّ عن بُعدٍ مُتَرقِّباً، ثُمَّ عادَ إلى مَكانِهِ المُفضَّلِ، وجلسَ مُنْتظراً صَديقتَهُ.

عِندئذٍ قالَ الجدُّ لهدى: «هدى، لا أفْهمُ هذا القطَّ، ولماذا تُحبّونهُ؟»

اقْتَربَتْ هدى من جَدِّها، وقَبَّلتْ جَبينَهُ، وقالَتْ: «إنَّهُ يُحبُّنا أيضاً يا جدّي. انظرْ يا جدّي إنَّه لا يَدخلُ غُرْفَتَكَ، لا يريدُ مُضايقتَكَ.»

صَمتَ الجدُّ، ولم يُجِبْ.

وفي أحدِ الأيامِ اسْتيقظَ الجدُّ مُبكِّراً ليوقِظَ أحْفادَهُ للذهابِ إلى المدرسةِ. كان الجدُّ مُتْعبًا، وبعدَ إعْدادِ الإفْطارِ للأحْفادِ، وضعَ حِلَّةً على البوتَجازِ (فرن الغاز) بها قليلٌ من الماء وبعضِ الخَضْرَواتِ لسلْقِها، كانَ يريد أكْلَ شوربةِ خُضارٍ فقط هذا اليومَ، ثُمَّ عدلَ عن فِكْرتِهِ، فذَهب إلى غُرْفتِهِ، ونسيَ أن يُطْفِئَ البوتَجازَ (فرن الغاز). جلسَ على كُرسِيٍّ هَزّازٍ يَقرأُ حتى يَأتيَهُ النَّومُ مَرَّةً أُخْرى. كانَ «بلبل» يَجلسُ بالصّالةِ مُراقباً الجدَّ عن بُعدٍ، فقد شَعرَ أنَّهُ مُتعبٌ، وحالتَهُ لَيْسَتْ على ما يُرامُ ككلِّ يومٍ، فقالَ في نَفْسِهِ:«لولا نُفورُكَ مني أيُّها الجدُّ لجَلسْتُ بجوارِكَ أرْعاكَ».

وغفا القطُّ «بلبل» قليلاً ثم اسْتيقظَ على رائحةٍ غَريبةٍ تَعمُّ الشِّقةَ. تَشَمَّمَ «بلبل» الرّائحةَ فأدْركَ أنَّها دُخانٌ، فنهضَ وقَفزَ إلى الأرضِ، وذهبَ للبحثِ عن مَصدرِ الدُّخانِ. اتَّجهَ إلى غُرفةِ الجدِّ، فرآه نائماً فوقَ كرسيِّهِ الهزّازِ.

تَشمَّمَ «بلبل» حَوْلَهُ، فعَرفَ مَصدرَ الرّائحةِ. إنَّه المَطبخُ، فجَرى نَحْوَه، فوجدَ الدُّخانَ قد عمَّ المَكانَ، فابْتعدَ خائفاً، ثُمَّ جَرى نَحْوَ الجدِّ، ولأوَّلِ مَرَّةٍ يَقْتربُ منه ويَمُوءُ بجانبِهِ بصَوتٍ عالٍ وحادٍّ، كي يَسْتيقظَ، ولكنَّ الجدَّ لم يَسمعْ مواءَهُ. فعادَ إلى المَطبخِ مُتردِّداً، فوجدَ الدُّخانَ يَنْتشرُ عَبرَ البيتِ، وكانت نَوافذُ الشِّقةِ مُغْلقةً لأنَّه في فَصْلِ الشِّتاءِ. فقالَ لنَفْسِهِ: «سيَخْتنقُ الجدُّ إنَّهُ كبيرٌ في السِّنِّ، ولن يَحْتملَ هذا القَدرَ من الدُّخانِ. ماذا أفعلُ؟ لا بدَّ أن أوقظَهُ».

وعادَ إلى الجدِّ بسُرعةٍ، قفزَ على رِجْليهِ ووقفَ، مدَّ يَديه مُحرِّكاً إيّاهما بحَذرٍ على صَدْرِ الجدِّ ليوقظَهُ. وظلَّ يَموءُ في وَجْههِ بصَوتٍ عَريضٍ دالٍّ على الخَطرِ، فاسْتيقظَ الجدُّ، وصرخَ في وَجْههِ:

«ماذا تُريدُ؟»

فجَرى القطُّ ناحيةَ المَطْبخِ وظلَّ يَموءُ، ثُمَّ عادَ إلى غُرفةِ الجدِّ مَرةً أُخرى، وظلَّ يَفْعلُ ذلك عِدةَ مَرّاتٍ بِسُرعةٍ كَبيرةٍ لَفتَتْ نَظرَ الجدِّ، فقالَ الجدُّ لنفسِهِ: «غَريبٌ أمرُ هذا القِطِّ ماذا يريدُ؟ لعلَّه يريدُ طَعاماً».

وقامَ الجدُّ وسارَ خَلْفَ القطِّ إلى المَطْبخِ، فوجدَ الدُّخانَ الكثيفَ يَعُمُّ المَكانَ. البوتَجازُ (فرن الغاز) مُطْفأٌ، والحَلَّةُ سَوْداءُ اللَّونِ، وقد نَفَدَ ماؤها تَماماً، والخَضْرَواتِ مُلْتَصِقَةً بها. فأغلقَ الجدُّ البوتَجازَ (فرن الغاز) بسُرعةٍ، وفتحَ شُبّاكَ المَطبخِ.

ثم ذهبَ إلى غرفةِ هدى وفتح شُبّاكَها، وألقى عليها نظْرَةً سريعةً، فابتَسَمَ سعيداً. كانت الغُرْفةُ مرتَّبةً ورائحَتُها ذَكيةً تُشْعِرُ مَن يراها بالرّاحةِ.

ثم ذهبَ إلى غُرفَةِ عمر ليَفْتَح بابَ شُرفتِها، فوجدَها غيرَ مرتَّبَةٍ، الكتبُ والألعابُ والأوراقُ مبعْثَرَةٌ في كلِّ مكانٍ، ونظرَ نحو الزَّرعِ فوجدَه يَميلُ إلى الإصْفِرَارِ من العَطَشِ، فقالَ الجدُّ لنفسِهِ: «لا بُدَّ من إيجادِ طريقةٍ كي يتعلَّمَ عمر النِّظامَ والاعْتمادَ على النَّفسِ».

وعادَ الجدُّ إلى غُرفتِهِ، وفتحَ شُبّاكَها، وجلسَ على كُرسيِّهِ الهزّازِ مرَّةً أخرى. اقْتربَ القطُّ «بلبل» من غُرفةِ الجدِّ، وقفَ على بابِها يَنظرُ إلى الجدِّ ليَطمئنَّ عليه، وماءَ له بصوتٍ رقيقٍ. فابْتَسمَ الجدُّ له لأوَّلِ مرَّةٍ، وقالَ لَه في حنوٍّ: «شُكراً يا بلبل أنتَ حقًّا قطٌّ طيِّبٌ، اقْتربْ منّي لا تخفْ يا بلبل.»

واقْتربَ «بلبل» في حَذَرٍ من الجدِّ، ثُمَّ وقفَ بجانبِهِ، فرَبتَ عليه، وقالَ لَهُ: «آهٍ إنَّكَ قطٌّ جَميلُ الشَّكلِ لم ألحظْ ذَلك من قبلُ، لونُكَ رَماديٌّ مُخَطَّط، عَيْناكَ واسِعتانِ مُعبِّرتانِ، وَجْهُكَ مُسْتطيلٌ، ونَظْرتُكَ تَفيضُ بالحبِّ. عَرفْتُ الآنَ لماذا تُحبُّكَ هدى، ولماذا تُدافعُ عنكَ دائماً. تَمَسَّحَ «بلبل» بالجدِّ، ثُمَّ نامَ بالقربِ منهُ، وقالَ لنفسِهِ: «أخيراً يا جدّي».

سَمِعَ «بلبل» اقْترابَ صوتِ أقْدامِ هُدى من بابِ الشِّقةِ، فتَنبَّه من غَفْوتِهِ، ونَظرَ إلى الجدِّ ثم أسْرَعَ اتِّجاهِ بابِ الشِّقةِ. فَتحَتْ هدى البابَ بمُفْتاحِهَا، فقابلَها «بلبل» مُرحِّباً بها كعادتِهِ، ولكنهُ في هذه المَرَّةِ لم يفرَّ هَارِباً عِندَ اقْترابِها من غُرفةِ الجدِّ، بل ظلَّ مُستَرخياً بينَ يَدَيْها. تَعجَّبتْ هدى، وقالَت لجدِّها: «لم يَجرِ «بلبل» بَعيداً عن غُرفَتِكَ يا جدّي، ماذا حدثَ وأنا بالخارجِ؟»

وقَفزَ «بلبل» على الكَنبةِ التي في غُرفةِ الجدِّ، وتمددَ في اسْترخاءٍ.

حَكى الجدُّ لهدى كلَّ ما حدثَ مع «بلبل»، وما رآه في غرفةِ عمر من فوضى، وقالَ لها: «لابدَّ أن يتعلَّمَ عمر النِّظامَ.»

فقالَتْ هدى: «كلَّمْتُهُ يا جدّي أكثرَ من مرَّةٍ.»

وصَمتَ الجدُّ قليلا ثُمَّ أكْمَلَ: «ما رأيُكِ أن لا نَفْعلَ له أيَّ شيءٍ يُريدُهُ ولا نُساعِدَهُ في شيءٍ حتى يَتعلَّمَ أنَّ عليه واجباتٍ كما أنَّ له حُقوقاً.»

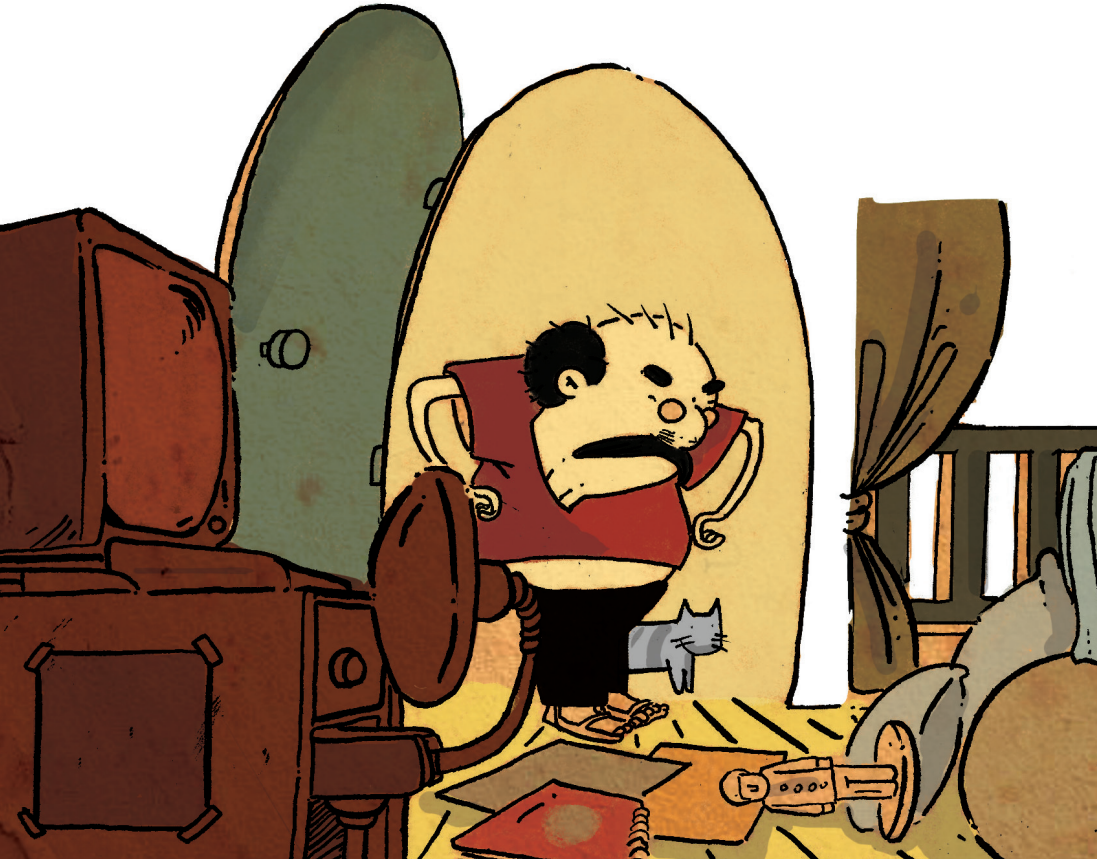

ووافقَتْ هدى جَدَّها بالرَّغمِ من صُعوبةِ الأمْرِ عليها فعمر أخوها الوَحيدُ تَلعبُ مَعهُ وتُحبُّهُ، وكانَ «بلبل» يَسمعُ حَديثَهُما باهْتمامٍ بالغٍ، وقالَ «بلبل» لنفسِهِ: «سَأفْعلُ مِثْلَهُما لن أُحدِّثَهُ أو أُلاعبَهُ حتّى يَتَغيَّرَ».

ودَخلَ عمر من البابِ في تِلكَ اللَّحظةِ، مُبْتسماً باشَّ الوجهِ كعادتِهِ، وقالَ لهدى: «أينَ طَعامُ الغَداء؟» فقالَتْ هدى: «جَهِّزْهُ لنفْسِكَ.»

فنَظرَ إلى جدِّهِ في اسْتعْطافٍ، فلم يَلْتَفتْ له جَدُّه، بَلْ قالَ له: «اذْهَبْ لغُرْفتِكَ أوَّلاً، واسعد برُؤْيتِها.»

فقالَ عمر لنفسِهِ: «إنَّهما غاضِبانِ، سيَنْسيانِ بعدَ قَليلٍ كلَّ شيءٍ، وسأَلْعبُ حتى ذلك الحينِ مع شَبيهي «بلبل» كَما يَقولُ عَنه جدّي».

ابْتسمَ عمر، واتَّجهَ لـ «بلبل» المُمدَّدِ على الكَنَبةِ في غُرفةِ الجدِّ، واقْتربَ مِنهُ بخَيطٍ من الحَريرِ تَعوَّدَ أن يُلاعبَه به. ولَكنَّ «بلبلَ» لم يَلْتفتْ إليه، ولمْ يَهتمَّ بِهِ، بلْ أعْطاهُ ظَهرَهُ، فقالَ له عمر:

«حَتّى أنْتَ يا بلبل».

تَرَكَهُ وخَرجَ حزيناً مُتَّجهاً إلى غُرفتِهِ ليَلعبَ مُنْفرداً على جِهازِ الكومْبيوتر الخاصِّ به. قالَ «بلبل» لنفسِهِ: «إذاً لم ينتَبهْ عمر لما يُريدُه جدُّه، سأُبَلِّغُهُ الرِّسالةَ بطَريقتِي».

وجَرى «بلبل» وذَهبَ إلى غُرفةِ عمر، فوَجدَه ساهِماً أمامَ جِهازِ الكومْبيوترِ. وقفَ «بلبل» عِندَ بابِ الشُّرفةِ المفتوحِ وماءَ بصَوْتٍ حادٍّ ثم صعدَ إلى سورِ الشُّرفَةِ كانَ يَبْدو الظَّمأُ على النَّباتاتِ، وقد بدأت بالإصْفِرارِ. فمَصَّها «بلبل»، ثُمَّ نَظرَ إلى عمر. جَرى ثُمَّ وَقفَ عِندَ بابِ الغُرفةِ يُناديه، وتَبِعَهُ عمر. اتَّجهَ «بلبل» إلى وِعاءِ الماءِ الخاصِّ به، شَربَ منه، ثُمَّ عادَ مُسْرعاً إلى النَّباتاتِ، وماءَ مَرَّةً أُخرى. فَهِمَ عمر ما يُريدُه «بلبل». فابْتسمَ له، وأحْضرَ رَشّاشَ الماءِ وسَقى النَّباتاتِ.

وفي تِلكَ الأثْناءِ سَمِعَ الجدُّ وهدى مُواءَ «بلبل» المُتغيِّرَ النَّبراتِ، فتَوقَّفا بالقُربِ من غُرْفةِ عمر يُراقِبانِ عمر وهما سَعيدانِ.

صعدَ «بلبل» إلى سَريرِ عمر. وظلَّ يُخَرمِشُ في ملاءتِهِ ثُمَّ يَفْردُها بأظافرِهِ. كانَتْ مَلاءةُ السَّريرِ مُجَعَّدةً وغيرَ مُرتَّبةٍ لأنَّ مُدَبِّرةَ المَنزلِ لم تأتِ صَباحَ اليومِ. عمر لا يُرتِّبُ غُرفتَهُ مُعْتمداً عليها. أدْركَ عمر ماذا يَعني «بلبل»، فأمْسكَ الملاءَةَ وبسَطها جَيِّداً. وجرى بلبل اتِّجاه لُعبةٍ ملقاةٍ على الأرضِ ووقفَ بجوارِها، ثم نظرَ إلى عمر، فالتقَطَ عمر اللُّعبةَ ووضَعها في مكانِها، فداعبَه بلبل مُمْسِكاً قدمَه برِفْقٍ، ثم جرى إلى لُعبةٍ أُخرى. واستمرَّ بلبل وعمر في ترتيبِ الغُرْفة، وهما يَلعبانِ ويَضْحكانِ.

وبعدَ أن أكْملا تَرتيبَ الغُرْفةِ، صعَدَ «بلبل» على كَتفِ عمر، وظلَّ يَتمسَّحُ به في رِضا. دَخلَ الجدُّ باسطاً ذِراعَيْه لحَفيدِهِ، فجَرى إليه عمر دامِعَ العَيْنينِ، وتَأسَّفَ له. وكانت هدى قد جَهَّزَتْ طَعامَ الغَداءِ، فأكلوا جَميعاً مَعاً في سَعادةٍ، وقالَ الجدُّ لهم: «الآنَ أنا حائرٌ ماذا سأفعلُ بدون «بلبل» عند عوْدةِ أمِّكما ورُجوعي لمَنزلي.»

فضَحكَ الطِّفلانِ، وماءَ القِطُّ «بلبل»، وصَعدَ إلى المِنْضدةِ وقبَّلَ الجدَّ في خَدِّهِ، فاحْتضنَهُ الجدُّ بحَنانٍ.